بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ
مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ
وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ
ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦

سورة يونس

سورة يونس مكيّة وآياتها تسع ومائة آية. قال بعض المفسرين: إنها نهاية السبع الطوال، والأرجح: أن السبع الطوال انتهت بسورة التوبة.

[١] سبق الكلام علىٰ الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أخبر جل وعلا أن ما يأتي من الآيات في هذه السورة؛ بل في آيات القرآن كله؛ هي آيات حكمة وبلاغة وهداية لمن كان له قلب واعٍ.

[٢] أنكر جل وعلا علىٰ كفار قريش تعجبهم من إنزال الوحي بالقرآن علىٰ رجل منهم وهو محمد ﷺ، مع أنه ليس في ذلك أي عجب، فإن من عادة الله في الأمم السابقة إرسال المرسلين من البشر ليبلغوا أقوامهم رسالة الله، فلو كان النبي ﷺ غير بشر فهل يصلح أن يكون أسوة؟ وهل سيعرف نفسيات البشر وضرورياتهم الحياتية؟ ثم يستعجبون كون الرسول بشرًا، ولا يستعجبون أن يعبدوا حجرًا أو صنمًا لا يضر ولا ينفع؛ فسبحان الله رب العالمين!!، والمراد بقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، الكفار عمومًا، وإنْ كان نزولها لكفار مكة. ثم بين سبحانه أنه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ لِيُنذر الناس ويخوفهم من عذاب الله، ويبشِّر الذين آمنوا بالله ورسوله بأنَّ ما قدموه من الأعمال الصالحة هو ذخر لهم وقدم صدق يقدره الله لهم ويرفع به درجاتهم عنده، أما الذين كفروا بهذا القرآن فيقولون: إنَّ ما جاء به محمد سحر بين ظاهر البطلان، وهكذا يقال لكل الرسل: ساحر، كذاب، كاهن، به جِنَّةٌ؛ فكل من شَرِقَ بالدعوة وأحب الاستمرار في الضلال فإنه يتهم الرسل والدعاة إلىٰ الله بنفس هذه الاتهامات وغيرها.

[٣] يخبر جل وعلا أنه هو الذي أوجد السماوات والأرض وأبدعهما في ستة أيام، ثم ارتفع وعلا واستوىٰ علىٰ العرش؛ استواء يليق بجلاله، وهو سبحانه مستوٍ علىٰ العرش قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود:٧]. والمقصود: أنه بعد أن خلق السماوات والأرض استوىٰ علىٰ عرشه؛ فأحاط عرشه بالسماوات والأرض؛ أي أن العرش سقف العالم كله، ولذلك إذا أراد امرؤ من الناس – في أي موضع كان من الأرض – أن يدعو الله فإنه يرفع يديه بالدعاء نحو العرش الذي استوىٰ عليه الله، والله من فوق عرشه يرىٰ القاصي والداني، ويسمع الداعي ولو دعا في سِرِّه. وهذا قول عامة أهل السنة والجماعة، أما الفرق الإسلامية الأخرىٰ فإنهم يؤولون هذه الصفة كغيرها من الصفات، فيقولون: (استوىٰ)، بمعنىٰ: استولىٰ، ولذلك يقال لهم: أليس الله قبل ذلك كان مستوليًا علىٰ كل شيء بما في ذلك العرش وغيره؟!. ثم بين سبحانه أنه من فوق عرشه يُقدِّر أمر الكائنات علىٰ ما قضت به حكمته، وأنه لا يتقدم أحد للشفاعة يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن الله له بالشفاعة، واعلموا أن ربكم الموصوف بهذه الصفات يجب عليكم أن تعبدوه وتخلصوا له العبادة، أفلا تتعظون وتعتبرون أيها الناس بهذه الآيات البينات والبراهين الواضحات؟.

[٤] يقرر جل وعلا في هذه الآية بدء الخلق في الدنيا ثم البعث، والرجوع إليه سبحانه، وأن هذا وعد صادق لا شك ولا مرية فيه، فالذي أنشأ وبدأ الخلق أول مرة من العدم قادر –من باب أولىٰ– علىٰ إعادته وبعثه، وذلك حتىٰ يلقىٰ الناس نتيجة أعمالهم ويحاسبوا عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فالذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ﷺ، وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحة؛ يجازيهم الله أحسن الجزاء وأوفره بالعدل، وأما الذين جحدوا وكذبوا؛ فأولئك جزاؤهم جهنم لهم فيها ماء حار يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، ولهم أنواع وأصناف من العذاب الأليم بسبب كفرهم وتكذيبهم وضلالهم.

[٥] واعلموا أن نِعَمَ الله علىٰ عباده لا حصر لها، ومنها المصالح الدنيوية والأخروية؛ فالشمس جعلها الله ضياء وسراجًا ليسعىٰ الناس إلىٰ مصالحهم؛ فحرارتها تبخر البحار فتتكون السحب والأمطار، وتجعل الثمار تستوي؛ وبها وبالقمر تعرف السنون والأبراج والفصول، وغير ذلك من المنافع الدنيوية. واعلموا أن الله ما أوجد الشمس والقمر إلا لِحِكَمٍ عظيمة، وأعظم هذه الحِكَم أنها دالة علىٰ كمال قدرة الله وحكمته، والله يبين هذه الأدلة والبراهين لقوم يعلمون الحكمة من إيجاد الخلق.

[٦] يخبر جل وعلا أن في تعاقب الليل والنهار، وكل ما خلق في السماوات والأرض من عجائب مخلوقاته، وما فيهما من جمال وإبداع ونظام؛ لأدلة وبراهين واضحة علىٰ عظمة خالقها، وهذه الآيات لا يفهمها إلا من يخشىٰ عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ
ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا
عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ
مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ
لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤

[٧] تحكي هذه الآية حكاية الدهريين والطبيعيين وكفار مكة الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، ويقولون أيضًا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥]، أي: وما نحن بمبعوثين؛ فهؤلاء لا يطمعون في لقاء الله، وقد رضوا بالحياة الدنيا الفانية، واطمأنوا إلىٰ زينتها وزخرفها، وهم ساهون لاهون عن آيات الله الواضحة البينة.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين لا يطمعون في لقاء الله أن مصيرهم ومقرهم نار جهنم خالدين فيها جزاء بما كسبوا من الأعمال السيئة والشرك والضلال والكفر.

[٩] ثم أخبر جل وعلا عن حال أهل الإيمان، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل بمقتضاه من الأعمال الصالحة بالجوارح، مع إخلاصهم ومتابعتهم، فهؤلاء: يرزقهم الله الهداية بسبب هذا الإيمان الصادق، وهذا يوصلهم إلىٰ الخلود في جنات تجري الأنهار من تحت بساتينها وقصورها، يُنَعَّمُونَ فيها نعيمًا تامًّا، وأعظم نعيمهم: النظر إلىٰ وجه الرحمن جل جلاله.

[١٠] ثم أخبر جل وعلا أن دعاء المؤمنين وعبادتهم ونداءَهم في الجنة قولهم: سبحانك اللهم؛ فدعاؤهم في الجنة تسبيح الله وتقديسه، وبه تطمئن قلوبهم، ويُلْهَمُونه كما يُلهَمون النفس، أما التحية من الله، أو من الملائكة، أو لبعضهم البعض فهي: سلام، وآخر دعائهم قولهم: الحمد لله رب العالمين.

[١١] قال بعض كفار مكة لمحمد ﷺ -لما ذكر لهم الآخرة والنار وَأَخْذَ الله للظالمين في الدنيا قبل الآخرة-، قالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:١٦]، أي: أعطنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب؛ وقد قالوا ذلك علىٰ سبيل الحماقة والسخرية؛ فأخبر جل وعلا ردًّا عليهم: أنه لو عجّل لهم إجابة دعائهم في الشرِّ كاستعجاله لهم في الخير لهلكوا، وما أمهلوا طرفة عين؛ فالله سبحانه لطيف بعباده؛ فهو العَالِمُ أن منهم من سَيُسْلِمُ، ومنهم من سيلد ذرية صالحة، وأنهم سوف يساعدون المسلمين في الجهاد ونشر الإسلام، وهكذا تم؛ فلله الحمد والشكر، ثم بين سبحانه أنه يترك الذين لا يطمعون في لقائه في تمردهم وضلالهم يترددون حائرين لاهين في دنياهم.

[١٢] وهذا أبلغ وصف للإنسان إذا حاصرته الشدائد والنكبات فإنه يلتجئ إلىٰ الله عز وجل، ويجأر بالدعاء والتضرع إليه في الشدة، وكذلك يلتجيء إلىٰ الله في كل الأحوال؛ سواء كان مضطجعًا علىٰ الفراش، أو قائمًا، أو قاعدًا، ثم إذا أزال الله مخاوفه وكشف الضر وشفي ربما - إذا كان مؤمنًا - حمد الله وشكره، ثم إذا مر الزمان نسي ألطاف الله وكرمه عليه، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء وتفريج الله عنه؛ ككثير من البشر، والآية حكت أبلغ وصف في نكران الجميل والإحسان. فنسأل الله السلامة، وأن يعافينا من هذا الاختبار؛ فَقَلَّ من ينجح في هذه الابتلاءات؛ بل إن بعضهم ينسب نجاة مركبه إلىٰ مهارة القائد، وشفاء مريضه إلىٰ مهارة الطبيب، وينسىٰ المتفضل الأول وهو الله. ثم بين سبحانه أنه كما زيّن لهذا الإنسان القدرة علىٰ الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء، فإنه زيّن للذين أسرفوا ما كانوا يعملون من الذنوب والمعاصي، أي: أنه أعطىٰ كلًّا اختياره.

[١٣] يخبر جل وعلا عن حال الأمم السابقة التي ظلمت نفسها بالشرك، وكذبت الرسل، فكان أنْ أهلكهم الله بعدما جاءتهم الرسل بالآيات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل علىٰ صدقهم، فلم يؤمنوا ولم ينقادوا ولم يذعنوا، فكان مصيرهم الإهلاك، وهو مصير كل مجرم مكذب متجاوز لحدود الله. وفي الآية تحذير شديد لأهل مكة إن هم لم يؤمنوا، فإن سنة الله ماضية عليهم، وأن مصيرهم الهلاك والبوار.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل الناس خلفاء في الأرض، أي: يخلف بعضهم بعضًا؛ بعد أن أهلك تلك الأمم السابقة الجاحدة المكذبة، ليرىٰ ماذا يعملون من الخير والشر؛ ولا شك أن الله عالم سلفًا كيف يعملون قبل عملهم، لكنه سبحانه لعدله لا يحاسب إلا عندما يقع العمل منهم فعلًا، فيثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم.

وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ
لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل
لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ
فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦
فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ وَمَا
كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
١٩ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا
ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠

[١٥] بين جل وعلا تعنت أولئك المنكرين للبعث الذين لا يعجبهم ذكر الحشر والنار؛ والذين يريدون قرآنًا حسب أهوائهم، وربما ينتظرون لعله أن يتغير شيءٌ مما قال محمد ﷺ فيثبتوا أنه كذَّاب؛ فيكون مدخلًا لهم لتشكيك أتباعه من المؤمنين، ومعلوم أن مكائد هؤلاء الكفار كثيرة، ولكن الله حافظ رسوله ﷺ منهم ومن غيرهم، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: لا ينبغي ولا يجوز لي أن أبدل شيئًا من هذا القرآن من تلقاء نفسي، فإنما أنا عبد ورسول مأمور أن أتبع ما يأتيني به الوحي؛ وإني أخاف إن عصيت وخالفت أمر ربي أن يعاقبني في ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة.

[١٦] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: لو شاء الله ما قرأت هذا القرآن عليكم، ولا أَعْلَمَكم بما فيه من النور والهداية، ولتركَكم في ضلالكم وغيكم تعمهون، وأنتم تعلمون أني عشت فيكم أربعين سنة ولم تجربوا عليَّ كذبًا، أفلا تستعملون عقولكم وأفكاركم ثم تشكرون نعمة الله عليكم حيث أنزل رسالته فيكم.

[١٧] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أشدَّ ظلمًا من صنفين:

الأول: الذي يتقول على الله ويختلق عليه الكذب.

والثاني: الذي يكذب بآيات الله ويجحدها بعدما جاءته.

فهؤلاء خائبون لا يفلحون ولا يظفرون بمطلوب أبدًا.

[١٨] ثم يخبر جل وعلا عن هؤلاء المشركين: أنهم يدعون مع الله آلهة أخرىٰ لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا، ويبررون هذا الشرك بقول باطل لا دليل عليه: أن هذه الآلهة تقربهم وتتوسط لهم عند الله، فقل لهم يانبي الله: أتخبرون الله بأمر خَفِيٍّ عليه وعَلِمْتُمُوه أنتم؟!! تقدَّس الله في علاه، وتنزه أن تكون معه آلهة أخرىٰ، وهذا تبكيت لهم.

[١٩] يخبر جل وعلا أن جميع الناس كانوا مؤمنين متفقين علىٰ دين الإسلام، ثم اختلفوا؛ فمنهم من بقي علىٰ إيمانه، ومنهم من بدَّل وكفر، ولولا كلمة سبقت من الله سبحانه بإمهال العاصين، وعدم تعجيل العقوبة لهم؛ لقضىٰ الله بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، ولكن يؤخرهم ليوم لا ريب فيه، وهذا ينطبق علىٰ قوم نوح عليه السلام وعلىٰ من شاكلهم.

[٢٠] يقترح هؤلاء المكذبون المعاندون فيقولون: لولا أُنزل علىٰ محمد آية خارقة – وكأنهم لم يعتدُّوا بما أنزل الله عليه من الآيات البينات–، فأخذوا يقترحون معجزات من قبل أنفسهم، فقل لهم يانبي الله عند طلبهم هذه الآيات: إنما الغيب لله، فلا يعلم الغيب أحد إلا الله، فانتظروا حكم الله بيننا، إني منتظر ذلك، وسوف تعلمون عاقبة تكذيبكم وعنادكم.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ
فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ
دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ
بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ
عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ
بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ
إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾

[٢١] بين جل وعلا حال المشركين إذا بدّل حالهم من العسر لليسر، ومن المرض للصحة، ومن الفقر للغنىٰ، ومن الجدب والقحط إلىٰ المطر والبركة، فإنهم يقولون هذه سنن الدهر، ولا يعترفون بأن الله هو المقدر لذلك كله، ويقولون: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:٩٥]، وسرعان ما يستهزؤون بآيات الله ويكذبون بها، فقل لهم يانبي الله: الله أعجلُ عقوبةً، وأسرع مكرًا واستدراجًا لكم، واعلموا أن الحَفَظَةَ من الملائكة يكتبون ما تعملون.

[٢٢] ثم يخبر جل وعلا أنه وحده هو الذي يسيركم في البر علىٰ الدواب وغيرها، وفي البحر علىٰ السفن وغيرها، وفي الجو علىٰ الطائرات، ثم وصف سبحانه حال الكفار عندما يركبون البحر وتجري بهم السفن بريح طيبة، ويفرح الركاب بهذه الريح، وفجأة تأتي ريح شديدة تعصف بهم، ثم تأتي الأمواج العالية في البحر وتحيط بهم، وتأكدوا أن الهلاك قد أحاط بهم من كل جانب؛ لجأوا إلىٰ الله مخلصين له الدين، ونسوا أوثانهم وأولياءهم؛ وهكذا لو أحاطت بهم الكوارث في البر كالزلازل والبراكين، أو اشتدت بهم العواصف وضربتهم الفياضانات، عند ذلك يقولون: لئن أنجيتنا ياربنا من هذا الكرب وهذا البلاء لنكون من الشاكرين لك علىٰ نعمك.

[٢٣] ثم بين جل وعلا أنه إذا فرَّج كربهم وأنجاهم، وأزال الخطر الذي أحاط بهم رجعوا إلىٰ ما كانوا عليه من البغي والفساد في الأرض بغير الحق، وقالوا: هذه كوارث طبيعية، أو نسبوا النجاة لبراعة القائد أو الطبيب، ونسوا الذي استغاثوا به فأنقذهم، فاعلموا أيها الناس إنما بغيكم سوف يعود عليكم، فاستمتعوا بنعيم الدنيا الزائل ما شئتم؛ فإنما إلىٰ الله مرجعكم ومصيركم، ثم يخبركم سبحانه بكل ما عملتموه في الدنيا، ويجازيكم عليه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٤] ثم ذكر جل وعلا الحياة الدنيا ووصفها بأبلغ وصف تصله العقول، فهي كالأرض إذا نزل عليها المطر تزدهر وتطيب وتحلو للناظرين، وتنبت بها أنواع الزروع والأشجار والثمار التي يأكل منها الناس والحيوانات؛ حتىٰ إذا ظهر حسنُ هذه الأرض وجمالها، وظن سكانها أنهم في نعيم مستمر، وأنهم قادرون علىٰ حصادها والانتفاع بها، فجأة يحل بها قضاء المَلِكُ ليلًا أو نهارًا فتصبح حصيدًا وهشيمًا كأن لم تزدهر وتطيب بالأمس؛ فكذلك سوف يقع الفناء علىٰ ما تتفاخرون به من دنياكم، فيحصل الموت للأهل والأقارب وخراب البيوت والقصور، وهذه سنة الله في خلقه فهو الذي كتب علىٰ الدنيا وأهلها الفناء، وكما بيَّن لكم سبحانه حال الدنيا ونهايتها؛ فقد بيَّن الحجج والبراهين الواضحة لقوم يتفكرون في آيات الله ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة. فنسأل الله تعالىٰ الخاتمة الحسنة.

[٢٥] واعلموا أيها الناس إنسًا وجنًّا أن الله يدعوكم إلىٰ الجنة، ثم يمنُّ بالهداية إلىٰ الصراط المستقيم علىٰ من يشاء من عباده ممن أراد الهداية ويعينه علىٰ ذلك؛ فالدعوة عامة وفضل الله خاص بالمستجيبين الراغبين برضوان الله.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ
كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ
مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩)
هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ
ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

[٢٦] يبين جل وعلا أن جزاء الذين أحسنوا في عبادة الله في الدنيا: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي: الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وهي: رؤية وجه الله الكريم يوم القيامة، فنسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وقارئي هذه الأسطر من المحسنين أصحاب الزيادة، التي هي رؤية وجه الله الكريم، كما جاء ذلك عند مسلم وأحمد عن صهيب رضي الله عنه، ثم أخبر سبحانه أنه لا تَسْوَدُّ وجوههم من دخان النار عند البعث، ولا يشعرون بالخزي والخذلان، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة باقون فيها أبد الآبدين في نعيم دائم لا ينقطع.

[٢٧] يحب جل وعلا المحسنين ويزيدهم من فضله، ويكره الكفار والظالمين والفاسقين، ولكنه يترفع عن ظلمهم وزيادة العقوبة عليهم، فلذا أخبر سبحانه أن جزاء السيئة لا يضاعف عليهم، وأنها تكتب بسيئة مثلها، ويوم القيامة تغشاهم ذلة من الهوان والخزي، وليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من عذاب الله وسخطه، وتراهم كأنما غطَّت وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم من شدة ما يحيط بهم من دخان جهنم، ونهاية أمرهم أنهم من أصحاب النار خالدون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

فانظر يارعاك الله الفرق بين الفريقين؛ فريق الجنة وفريق السعير!!.

[٢٨] وتذكر يانبي الله يوم أن يُحشر الناس جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول سبحانه للمشركين تقريعًا وتبكيتًا لهم: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا من دون الله حتىٰ نحكم بينكم وبينهم وتروا ما يحل بكم، ثم يفرق الله بين العابد والمعبود؛ فيتبرأ المعبودون ممن عبدوهم ويقولون لهم: لم نأمركم بعبادتنا في الدنيا وإنما عبدتم أهواءَكم وشياطينكم الذين أغووكم وأمروكم بعبادتنا فأطعتموهم.

[٢٩] ثم إن الله ينطق هذه الأصنام والأوثان فتقول: كفىٰ بالله شهيدًا بيننا وبينكم أننا لم نأمركم ولم نرض بعبادتكم لنا، فقد كنا جمادًا لا روح فينا، لذا كنا في غفلة عن عبادتكم؛ ولم نشعر أنكم كنتم تعبدوننا.

[٣٠] ثم بين جل وعلا أن كل شخص يوم القيامة يرىٰ نتيجة ما عمل في الدنيا، ثم ترد كل نفس إلىٰ ربها الحقيقي، فيضمحل الباطل الذي اصطنعه الكفار، واختفت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، فلم تشفع لهم ولم تدفع عذاب الله وعقابه الذي كُتِبَ عليهم.

[٣١] وقل يارسول الله لهؤلاء المشركين والكفار: من الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ ومن الذي يحيي؟ ومن الذي يميت؟ ومن الذي يملك ما تتمتعون به من السمع والأبصار؟ ومن الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؟ إلىٰ آخر هذه الأسئلة التي سيجيبونك بعدها: بأنه الله؛ حينئذ قل لهم يانبي الله: أفلا تخشون عقوبة الله إذا عبدتم غيره.

[٣٢] وقل لهم يانبي الله: فاعلموا أن هذا الذي اعترفتم أنه: الخالق الرازق، المحيي المميت، الذي يملك سمعكم وأبصاركم، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، وغير ذلك؛ اعلموا أنه هو ربكم الإله الحق الذي يستحق أن تفردوه بالعبادة، فماذا أيها الضالون بعد الحق إلا الضلال المبين، ثم أجبهم يانبي الله علىٰ سبيل التعجب والإنكار: فكيف تصرفون عن عبادته وشكره سبحانه إلىٰ عبادة ما سواه؟

[٣٣] واعلموا أنه كما صَرَفَ هؤلاء المشركون أنفسهم عن الحق إلىٰ الضلال، وأصروا علىٰ الكفر بعد أن قامت عليهم الحجة؛ فكذلك حقت ووجبت عليهم كلمة الله بعدم هداية الذين يخرجون عن طاعته وصرفهم عن هدايته، فلا يؤمنون بوحدانية الله، ولا يصدقون برُسُله، وهذا اختيارهم؛ حيث جعلهم الله مختارين فاختاروا الكفر والضلال واستمروا عليه فثبتهم الله علىٰ ما اختاروا جزاءً وليس ابتداءً.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ
إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ
بِسُورَةٖ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾
وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم
بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

[٣٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل السخرية: هل يستطيع أحد ممن تدعون من دون الله أن يُنشيء خلقًا من عدم ثم يفنيه ثم يعيده مرة أخرىٰ؟ ثم قل لهم: اعلموا أن الله وحده هو الذي ينشيء الخلق ثم يفنيه ثم يعيده مرة أخرىٰ؛ فكيف تنصرفون وتنحرفون عن عبادته سبحانه إلىٰ عبادة غيره؟!

[٣٥] وقل لهم يانبي الله: هل من شركائكم من يرشدكم إلىٰ مصالحكم في الدنيا والآخرة؟ أو يدلكم علىٰ طريق الحق والاستقامة؟ فسوف يقولون: لا؛ فحينئذ قل لهم: إن الله وحده الذي يهدي إلىٰ الحق، ثم قل لهم: أليس الذي يرشد الناس إلىٰ الحق وإلىٰ ما يصلحهم -وهو الله- أحق بالعبادة والاتباع؟! أم أن الذي لا يستطيع هداية نفسه -وهي الأصنام-، ولا تهدي أحدًا هي الأحق بالاتباع؟!؛ فما الذي دهاكم وأتلف عقولكم؟ وكيف تحكمون هذا الحكم الفاسد؟.

[٣٦] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يتبعون في عبادتهم إلا الظن والوهم والتخرُّص، ولا شك أن الظن الفاسد لا يغني من اليقين والحقيقة شيئًا أبدًا، ومعلوم أن أمر الدين والعقيدة لا ينفع فيه الظن والشك؛ لأنه مبني علىٰ العلم الذي جاءت به الرسل، والذي يتضح به الحق من الباطل، واعلموا أن الله عليم بكفر هؤلاء وشركهم وتكذيبهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وأن الله مجازيهم علىٰ ذلك.

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن هذا القرآن كلام الله لا يستطيع أن يقوله أحد من الخلق، أو أن يأتي بمثله؛ لإعجازه لفظًا ومعنىً وبلاغةً، وَلِمَا يحتويه من علوم الأولين والآخرين وعلوم الغيب، ثم أخبر سبحانه أنه كلام الله ووحيه أنزله مصدقًا للكتب السماوية السابقة، وأنه تبيين وتوضيح لأحكام الله وفرائضه وشرائعه، وأنه لا شك ولا مرية في أنه وحي نزل من رب الخلائق أجمعين.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين المكذبين -عنادًا وبغيًا- يقولون: إن هذا القرآن لم يوحَ إلىٰ محمد؛ بل افتراه واختلقه من عند نفسه، ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: إذًا، فأتوا أنتم بسورة واحدة مثله في البلاغة والفصاحة والإعجاز، وادعوا من شئتم يظاهركم ويعاونكم في ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مُخْتَلَقٌ من قِبَل محمد.

[٣٩] بين جل وعلا أن الكفار استعجلوا في تكذيب القرآن قبل أن يتفهموه ويعرفوا فوائده ومقاصده، وقد ذمهم جل وعلا علىٰ التقليد وترك النظر والتعقل والتفكر في مقاصده ومعرفة ما سيئول إليه أمره، والتأويل عند المفسرين هو شرح الآية وتوضيحها، ويأتي كما ذكر هنا بمعنىٰ: مآل الأمر، أي: حدوثه ورؤيته عيانًا، وربما يكون المقصود الأول وهو: أنهم لم ينتظروا شرحه وتفسيره فبادروا بالإنكار والتكذيب، كما قال يوسف لأبيه لما سجدوا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، يقصد تفسيرها، ثم بين سبحانه أنه كما كذب مشركو مكة نبيهم ﷺ؛ فكذلك كان تكذيب آيات الله وجحدها من الأمم السابقة؛ فانظر يانبي الله كيف أهلكناهم وعذبناهم بسبب تكذيب رسلنا ظلمًا وعلوًّا وكفرًا وعنادًا.

[٤٠] واعلم يانبي الله أن من قومك من يصدق بالقرآن، ومنهم من لا يصدق به؛ فجحده ورفض الإيمان به مكابرة وحسدًا وظلمًا وعنادًا وإفسادًا كأبي جهل وغيره، ثم بين سبحانه أنه أعلم بالمفسدين، وفي هذا تحذير لمن يصد الناس ويصرفهم عن دين الله.

[٤١] أرشد جل وعلا نبيه ﷺ إذا كذبه قومه ورفضوا الهدىٰ الذي جاء به؛ أن يقول لهم: إن جزاء أعمالي علي، وجزاء أعمالكم عليكم، وأنتم بريئون أمام الله من أعمالي، وأنا بريء أمام الله من أعمالكم، وقوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس:٤١]، شرح لقوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، أي: أن البراءة تكون بعد الدعوة والتبليغ، وبعد أن يكذبوا بالرسالة.

[٤٢] واعلم يانبي الله أن من هؤلاء الكفار من يستمع إليك وقت تلاوتك القرآن، استماعًا يتطلبون فيه عثرة لك حتىٰ يكذبوك، ولذلك حُرموا التوفيق للهداية؛ فهؤلاء كالأصم الذي لا يعقل؛ فهل تستطيع يانبي الله أن تُسمعه كلام الله؟ فكذلك هؤلاء الكفار الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق لا يمكن أن تُسمعهم كلام الله إسماعًا ينتفعون به.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ
﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟
مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

[٤٣] واعلم أيضًا يانبي الله أن من هؤلاء الكفار من ينظر إلىٰ هديك وأخلاقك وأعمالك، ويرىٰ آثار النبوة ظاهرة عليك، ومع ذلك لا يهتدي، ولا يرىٰ ببصيرته نور الإيمان، فهؤلاء كالأعمىٰ الذي لا يبصر؛ فهل تستطيع يانبي الله أن تخلق له بصرًا يهتدي به إلىٰ الطريق؛ فكذلك هؤلاء الكفار الذين فقدوا بصيرتهم لا يمكن أن تهديهم إلىٰ طريق الله المستقيم.

[٤٤] ثم أخبر جل وعلا أن الله لا يظلم الناس شيئًا؛ فلا ينقص من حسناتهم ولا يزيد في سيئاتهم؛ بل خلقهم علىٰ أكمل وجه، وجعل لهم من الإدراك ما يميزون به الخير من الشر، والحق من الباطل، ولكن الناس يظلمون أنفسهم باتباع أهوائهم وإعراضهم عن الحق، ومخالفتهم أمر الله ونهيه لشهوة أو شبهة، والشيطان يحسن لهم ما هم فيه من الضلال.

[٤٥] يخبر جل وعلا عن مشهد من مشاهد يوم البعث، فبعد أن يُحْشر الناس في صعيد واحد يشعرون بسرعة انقضاء الدنيا وزوالها، كأنهم ما لبثوا فيها إلا ساعة واحدة من النهار يتعرف بعضهم علىٰ بعض كحالهم في الدنيا ثم يفترقون، ففي ذلك الموقف العظيم يفوز وينجو من آمن بالله وامتثل أوامره وصدَّق بالبعث، ويهلك ويخسر من كفر وكذَّب بالبعث وبلقاء الله، ومن كانت هذه حاله فما هو بموفق ولا هو برشيد.

[٤٦] يخاطب جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: إما أن نريك بعض ما وعدنا الكفار به من العذاب في الدنيا بقتلهم وأسرهم؛ فتقر بذلك عينك، وتطمئن نفسك، وإما أن نتوفينك قبل ذلك، ثم يكون إلينا مرجع ومصير هؤلاء الكفار، فنعذبهم في الآخرة العذاب الشديد، ونحن شهداء عليهم، لا يخفىٰ علينا من أمرهم ولا من أعمالهم شيءٌ، وفي هذا وعيد شديد لهم، وتسلية وطمأنة للنبي ﷺ.

[٤٧] يخبر جل وعلا أنه ما من أمة مضتْ إلا جاءها رسول من عند الله يدعوهم إلىٰ التوحيد؛ فإذا جاءهم بالآيات فإن الناس ينقسمون فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من كذب وكفر؛ فيقضي الله بينهم بالقسط والعدل فينجو من آمن، ويهلك من كذَّب، ولا يظلم الله الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

[٤٨] ويقول المشركون للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين علىٰ وجه الإنكار والتكذيب والعناد: متىٰ ميعاد قيام الساعة التي سنُعَذَّب فيها! إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ وهم بهذا يستعجلون عذاب الله وسخطه.

[٤٩] فقل لهم أيها الرسول الكريم: ليس لي من الأمر شيء، فأنا لا أستطيع دفع الضر عن نفسي، ولا جلب النفع لها -إلا بإذن الله-، وما عليَّ إلا البلاغ والبيان، واعلموا أن لكل أمة وقتًا محددًا لها تنقضي فيه آجالهم وتفنىٰ فيه أعمارهم؛ فإذا جاء ذلك الوقت فلا يستأخرون ساعة واحدة ولا يستقدمون.

[٥٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المستعجلين للعذاب: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلًا أو نهارًا هل تطيقونه وتقدرون علىٰ تحمله؟! فأي مكسب استعجلتموه! وأي عقاب وعذاب ابتدرتموه أيها المجرمون!، ثم إنه لو جاء لا يمكنكم الرجوع والتوبة.

[٥١] ثم يقال لهؤلاء المشركين زيادة في تأنيبهم: أتستمرون في التكذيب والعناد؛ فإذا وقع عليكم العذاب تقولون آمنّا!! وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولهذا يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: آلآن!! تؤمنون بعدما عاينتم العذاب وأنتم في شدة ومشقة؟! وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكذيبًا منكم واستنكارًا.

[٥٢] ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بالشرك وتجاوُز حدود الله علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء بهم: ذوقوا العذاب الشديد الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فأنتم في نار جهنم خالدون، وهل هذا إلا جزاء ما كسبت أيديكم من الكفر والتكذيب واستعجال العذاب!

[٥٣] ثم يخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين المعاندين يقولون علىٰ وجه التعنت: أحق وصحيح يامحمد حشر العباد وبعثهم؟! أحق وصحيح ما تَعِدُنا به من عذاب يوم القيامة؟! فقل لهم أيها الرسول: أقسم لكم بربي إنه لحق لا مرية فيه، وما أنتم بمعجزين لله، ولا مفلتين منه، فسيبعثكم ويجازيكم علىٰ أعمالكم.

[٥٤] ثم أخبر جل وعلا لو أنَّ لكلِّ نفس ظلمت بالكفر والشرك والمعاصي ملء الأرض ذهبًا وفضةً وغيرهما وأمكنها أن تفتدي به من العذاب لفعلت، ولكن هيهات، فإن ذلك لن ينفعها أبدًا، وإنما الذي ينفعها هو الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، ثم بين سبحانه أن الذين ظلموا أخفوا ندامتهم وحسرتهم لما عاينوا عذاب الله وعقابه، وبين سبحانه أيضًا أن من عدله أنه قضىٰ بينهم بالعدل التام الذي لا ظلم فيه.

[٥٥] ثم أخبر جل وعلا أن جميع ما في السماوات والأرض ملك لله تعالىٰ يتصرف فيها كيف شاء، ثم نبه سبحانه وذكَّر أن لقاء الله ووعيده بعذاب المشركين حق وكائن وواقع لا محالة، ولكن أكثر الناس في غفلة وإعراض عن حقيقة ذلك.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده القادر علىٰ الإحياء والإماتة -لا شريك له في ذلك-، وإليه مرجع جميع الخلائق يوم القيامة فيحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٥٧] وهذا نداء من الله جل وعلا لجميع الناس إنسهم وجنهم مسلمهم وكافره، يخبرهم فيه أنه أنزل لهم أعظم موعظة وهو هذا القرآن الذي بين أيدينا، وما اشتمل عليه من الآيات، يذكرهم عقاب الله ويحذرهم وعيده، ويصلح أخلاقهم وأعمالهم، ثم بين سبحانه أن في هذا القرآن دواء لما في القلوب من أمراض الجهل والشرك وغيرها من الأمراض، وهداية وَرُشْدًا لمن اتبعه وتدبر آياته واهتدىٰ بهداه، ورحمة لعباده المؤمنين الذين صدقوا بآياته وآمنوا بما جاء به من العبر والمواعظ والأحكام والشرائع والحلال والحرام، وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه.

وهذه الآية من آيات الشفاء التي يستعملها الرقاة لشفاء المرضىٰ؛ لأن فيها الهدىٰ والرحمة والشفاء؛ فلله الحمد والشكر علىٰ ألطافه ورحمته بعباده، وهي خير من حطام الدنيا مهما كثر.

[٥٨] وقل يانبي الله لجميع البشر: اعلموا أن الفرح الحقيقي هو بما جاءهم من الهدىٰ ودين الحق، ولقاء الله، وثوابه للمؤمنين ورحمته بهم، والفوز بجنته، هذا هو الفرح الحقيقي الذي يدوم ولا ينقطع، وهذا خير مما يجمعون من حطام الدنيا الزائل.

وقد قيل في تفسير قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾، أي: القرآن، ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾: أي الرسول ﷺ.

[٥٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المعاندين: أخبروني عن الرزق الذي ساقه الله إليكم فقسمتموه علىٰ أهوائكم فجعلتم بعضه حلالًا وبعضه حرامًا: هل أذن الله لكم في ذلك؟!، أم هذه الأحكام من قبل أنفسكم؟! فاعلموا أنكم تقولتم وكذبتم في هذه الأحكام علىٰ الله؟!.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى
ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

[٦٠] ثم أنكر جل وعلا عليهم جرأتهم وكذبهم علىٰ الله، فقال: ماذا يظن ويتوقع هؤلاء الذين يكذبون علىٰ الله -فيُحِلُّون ويُحَرِّمُون حسب أهوائهم- أن يُصنع بهم يوم القيامة؟! وهم بين يدي الله؟! واعلموا أن الله لذو فضل ومَنٍّ وإحسان علىٰ الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله، فلا يعترفون لِمُنْعِمِهَا بالفضل؛ بل يستعملونها في معصيته، وقليل من عباد الله الشكور.

[٦١] واعلم يانبي الله أنك ما تكون في أمر من أمورك الهامة، وما تتلوا من القرآن، وما يعمل أحد من الناس عملًا؛ إلا كان الله مطلعًا عليه مراقبًا له عند شروعه في ذلك العمل وبدئه فيه، وما يغيب عن علم الله جل وعلا وزن ذرة أو أكبر أو أصغر منها، إلا كان ذلك مسجلًا في كتاب واضح بيِّن.

وهذا خطاب للنبي ﷺ ليبلغ الناس أنهم تحت رقابة الله لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن كل فعل أو قول مسطر محفوظ.

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ
ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ
مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠

[٦٢] أخبر جل وعلا أن أولياءه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد بين سبحانه صفات هؤلاء الأولياء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٣-٥].

[٦٣] ثم أخبر سبحانه أن أولياء الله هم الذين اتصفوا بالإيمان بالله ورسوله وعملوا بشرعه، وكانوا يخشون الله باتباع ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر.

[٦٤] وأخبر أيضًا أن أولياء الله لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا والآخرة، ثم بين سبحانه أنه لا يخلف وعده ولا يبدله، وأن ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده؛ لأنه اشتمل علىٰ النجاة من كل محذور، والظَّفَر بكل مطلوب محبوب، وهذا من أعظم المطالب والمقاصد التي يسعىٰ لها المؤمنون الصادقون.

[٦٥] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن النبي ﷺ كان حريصًا علىٰ إيمان الكفار والمشركين، وكان يحزنه إصرارهم علىٰ الكفر، ومعاداتهم وأذاهم للمؤمنين المستضعفين، ولذا قال جل وعلا رحمة برسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]؛ فالمصطفىٰ ﷺ بذل قصارىٰ جهده في إبلاغ رسالة ربه، وآلمه كثيرًا أن لا يستجيبوا ولا يؤمنوا؛ فالله سبحانه طلب منه الرفق بنفسه، وأخبره أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون من مكر وعداوة للمؤمنين، واعلم يانبي الله أن المتفرد بالقوة الكاملة والقدرة التامة والغلبة الشاملة في الدنيا والآخرة؛ هو الله جل في علاه؛ وهو سميع لأقوال عباده، عليم بكل ما يصدر منهم من أقوال وأفعال.

[٦٦] ثم أخبر جل وعلا أن له جميع من في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وتصريفًا وتدبيرًا، وما دام الأمر كذلك فهؤلاء الذين اتخذوا شركاء من دون الله علىٰ أي شيء اتخذوهم شركاء؟ وبأي حق صرفوا لهم العبادة؟! إن يتبعون إلا الوهم والكذب والبهتان والشك الذي لا يغني من الحق شيئًا، وما هم إلا متقولون كاذبون.

[٦٧] ثم يخبر جل وعلا أنه وحده هو الذي جعل الليل وهيأه للسكن فيه والهدوء والنوم والراحة بسبب الظلمة التي تكسو وجه الأرض، وهو وحده سبحانه الذي جعل لكم النهار مضيئًا لتتمكنوا فيه من العمل وكسب الرزق، واعلموا أن في تقلب الليل والنهار واختلافهما دليلًا واضحًا علىٰ وحدانية الله جل في علاه، وهذه الآيات تنفع الذين يستمعون سَمْعَ فهم وقبول واسترشاد وتفكر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان:٦٢].

[٦٨] ثم أخبر جل وعلا عن فرية عظيمة افتراها المشركون والنصارىٰ، وهي قولهم: إن الله اتخذ له ولدًا!!، فنزَّه سبحانه نفسه عن ذلك، وبين بطلان فريتهم بثلاثة أشياء:

الأول: أنه هو الغنيُّ الغنىٰ المطلق التام، وأنه الحي القيوم الذي لا يموت، وإذا كان كذلك فَلِمَ يتخذ الولد؟!

الثاني: أنه سبحانه له جميع ما في السماوات والأرض، وكل ذلك داخل في ملكه وعبوديته؛ فَلِمَ يتخذ الولد؟!

الثالث: سألهم سبحانه: هل عندكم دليل أو حجة أو برهان تدل علىٰ أن لله ولدًا؟! فلو كان عندهم دليل لأظهروه، وبما أنهم مفترون كاذبون فلن يأتوا بدليل، فعُلِم بطلان ما قالوه، ثم وبخهم سبحانه بقوله: أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون؟!

[٦٩] وقل لهم يانبي الله متوعدًا إياهم: إن الذين يفترون الكذب علىٰ الله، ومن ذلك ادعاؤهم له الولد والشريك؛ هؤلاء لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

[٧٠] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين يفترون علىٰ الله فيدعون له الولد أنهم يتمتعون في الدنيا متاعًا قليلًا مع كفرهم وكذبهم وافترائهم، ثم تنقضي آجالهم ويرجعون إلىٰ الله فيذيقهم العذاب الشديد المؤلم الموجع جزاء كفرهم وكذبهم وافترائهم علىٰ الله، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ
فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ
ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ
إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ
٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ٧٥
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ ٧٦
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨

[٧١] ذكر جل وعلا لنبيه ﷺ ما لاقىٰ الأنبياء السابقون من أقوامهم، ومنهم نوح عليه السلام؛ حيث دعا قومه ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا، فرأىٰ ضجر قومه منه وإصرارهم علىٰ البقاء علىٰ الضلال، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقرأ علىٰ مشركي قريش قصة نوح عليه السلام؛ حيث قال نوح لقومه: ياقوم إن كان عظم عليكم مقامي فيكم وتذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه؛ فعلىٰ الله وحده أعتمد وبه أثق، فاجتمعوا وتهيؤوا واطلبوا من شركائكم أن يساعدوكم، ثم لا تجعلوا أمركم سرًّا؛ بل اجعلوه ظاهرًا منكشفًا، ثم تخلصوا مني وأعطوني الشهادة في سبيل الله ولا تمهلوني ساعة من نهار؛ لأنهم هددوه بالقتل والرجم إذا لم يتوقف عن دعوتهم وتذكيرهم بالله، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]؛ فسلمه الله منهم وأنجاه هو ومن معه في الفلك.

[٧٢] ثم قال نوح لقومه: فإن أعرضتم عن دعوتي ولم تستجيبوا إلىٰ ما أرسلت به إليكم؛ فأنا لم أسألكم أجرًا ولا مالًا مقابل دعوتي إياكم؛ لأن أجري وثوابي علىٰ الله وحده، وهو الذي أمرني أن أكون من المسلمين المنقادين لشرعه وحكمه.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أن قوم نوح استمروا علىٰ تكذيبهم لرسولهم ولم يؤمنوا به، فنجىٰ الله نبيه نوحًا ومن آمن معه في السفينة التي أمره الله بصنعها، ومكّن الله لهم في الأرض وجعلهم خلفًا لأولئك المكذبين الهالكين، ثم بين سبحانه أنه أغرق المكذبين بالطوفان بعدما قامت عليهم الحجة وجاءهم البرهان، فانظر يانبي الله كيف كانت نهاية ومصير من كذب برسل الله، أنْ أهلكهم الله وأخزاهم ولعنهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

[٧٤] يخبر جل وعلا عن حال الأمم بعد هلاك قوم نوح، وأنه أرسل في كل أمة رسولًا يدعوهم إلىٰ التوحيد، وأيده بمعجزات ظاهرات، وآيات بينات واضحات تدل علىٰ صدقه وأنه رسول من عند الله، فما صدقوا ولا آمنوا؛ بل كذبوا وأعرضوا، وفعلوا كما فعل قوم نوح فعاقبهم الله كما عاقب قوم نوح بأنْ ختم علىٰ قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان، وهذا مصير كل معتدٍ علىٰ الأنبياء مبادرٍ لتكذيبهم، مخالفٍ لما جاؤوا به من عند الله.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل بعد هؤلاء الرسل موسىٰ وهارون عليهما السلام إلىٰ فرعون وملائه وأيدهما بالآيات التسع؛ فاستكبروا عن الاعتراف بها بعد أن أيقنوا بها في قلوبهم، كما قال الله عن فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال موسىٰ لفرعون: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولهذا أخبر سبحانه أن فرعون وملأه كانوا قومًا مشركين مكذبين بآيات الله ورسله.

[٧٦] فلما جاء موسىٰ إلىٰ فرعونَ وقومَهُ بالحق وأيقنوا به، قالوا علىٰ سبيل العناد والغرور: إن الأدلة والبراهين والمعجزات التي جاء بها موسىٰ إنما هي سحر ظاهر وليست من عند الله جل وعلا.

[٧٧] ثم قال موسىٰ لفرعون وقومه علىٰ سبيل التعجب من تكذيبهم بالأدلة والبراهين: أتدَّعون ظلمًا وزورًا أن الحق الذي جئت به هو من السحر، وأنتم تعلمون أنه لا يفلح ولا يفوز الساحرون؛ بل ينكشف سحرهم وينفضح أمرهم.

[٧٨] ثم قال فرعون وقومه لموسىٰ وهارون عليهما السلام: إنك أتيت لتنزع الرئاسة منَّا، وتصرفنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا الأولين، وهدفكما أن تكون لكما العظمة والسلطان والمنصب في أرض مصر، كما قال تعالىٰ: ﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [القصص:٤٨]، واعلما أننا لسنا لكما بمقرّين ومعترفين بأنكما رسولان من رب العالمين؛ لعبادة الله وحده لا شريك له.

ومعلوم أنه لم يؤمن من الأمم السابقة التي أرسل إليها الرسل إلا قوم يونس عليه السلام، كما قال تعالىٰ في هذه السورة: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ
عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ
خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن
كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾
فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ
قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ
وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

[٧٩] ثم قال فرعون لقومه: أحضروا لي كل ماهر في السحر متقن له.

[٨٠] فلما قَدِمَ السحرة قال لهم موسىٰ: انشروا سحركم، واطرحوا ما لديكم علىٰ الأرض من عِصِيٍّ وحبال ليثبت بطلانه.

[٨١] فلما ألقىٰ السحرة حبالهم وعصيهم، وخُيِّل للناس أنها حيات، قال موسىٰ: إن هذا الذي صنعتموه إنما صنعتموه لتنصروا به الباطل، وتصدوا به عن الحق، ومع ذلك: فإن الله سيبطله وسيمحقه وسيجعله هباء؛ فيعلم الناس حقيقة باطلكم، واعلموا أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

[٨٢] ثم ألقىٰ موسىٰ عصاه فانقلبت حيّة عظيمة التهمت كل ما ألقاه هؤلاء السحرة، فبطل سحرهم، وظهر باطلهم، وسجد السحرة حيث أيقنوا بالحق، وبين الله الحق للناس وأظهره وأعلاه وثبته بكلماته وأمْرِهِ، ولو كره ذلك الحق من كرهه من المجرمين الذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا.

[٨٣] ثم بين جل وعلا أنه لم يؤمن مع موسىٰ إلا ذرية قليلة من بني إسرائيل، وهم مع ذلك خائفون وجلون من بطش فرعون وملئه أن يصدهم ويفتنهم عن دينهم بأصناف العذاب، فإن فرعون كان ظالمًا متسلطًا مستبدًا مستكبرًا، وكان من المتجاوزين للحد المتغطرسين.

[٨٤] وقال موسىٰ لمن آمن معه: إن كنتم آمنتم بالله حقًّا، وأسلمتم له صدقًا، فثقوا به واعتمدوا عليه، وسلِّموا أمركم له، والجأوا إليه، واطلبوا منه النصر والتمكين.

[٨٥] فامتثل قوم موسىٰ لقوله قائلين: علىٰ الله توكلنا، وفوضنا أمرنا إليه، ودعوا الله قائلين: يارب لا تُمكّن القوم الظالمين منّا، ولا تسلطهم علينا؛ فيعذبونا ويفتنونا عن ديننا، ويفتنوا غيرنا ممن ينظر لحالنا.

[٨٦] ودعوا الله أيضًا قائلين: ونجِّنا يارب من هؤلاء القوم الكافرين؛ حتىٰ نقيم دينك وشرعك.

[٨٧] ولما اشتد الحصار علىٰ أتباع موسىٰ عليه السلام ومنعوهم من أداء شعائرهم الإسلامية في الكنائس أوحىٰ الله إلىٰ نبيه موسىٰ وأخيه هارون وقومهم أن يتخذوا لهم في مصر بيوتًا ويجعلوا فيها أماكن متجهة إلىٰ القبلة يؤدون فيها صلاتهم وشعائرهم، ثم أمر سبحانه بالمحافظة علىٰ الصلوات المفروضة في أوقاتها، وأمر موسىٰ أن يبشر المؤمنين المطيعين لله بالنصر والتمكين في الدنيا، والثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالىٰ في الآخرة.

وقوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فيها قولان:

الأول: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا ليسهل حراسة بعضكم بعضًا.

والثاني: اجعلوا صلاتكم في بيوتكم متجهين للقبلة.

[٨٨] ثم دعا موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون وملئه لما طغوا وتجبروا وأعرضوا، فقال: ربنا إنك أعطيت فرعون وقومه زينة يتزينون بها، وأعطيتهم أمولًا كثيرة فاستعانوا بذلك علىٰ الصدِّ عن سبيلك وإضلال الناس، اللهم ربنا أتلف أموالهم فلا ينتفعون بها، اللهم وقسِّ قلوبهم، واختم عليها، فلا تنشرح للإيمان فلا يؤمنوا إلا إذا عاينوا عذاب الله وعقابه فلا ينفعهم حينها الإيمان.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ
﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ
مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن
قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

[٨٩] وكان هارون عليه السلام يؤمِّن علىٰ دعاء موسىٰ، لذا قال الله لهما: قد استجبت دعوتكما، فاثبتا علىٰ الدين، واستمرا في الدعوة إلىٰ الله، ولا تتبعا سبيل من انحرف عن دين الله، وضل وجهل.

[٩٠] ثم أخبر جل وعلا أنه يسَّر لموسىٰ وقومه مجاوزة البحر بعد أن جعل لهم فيه طريقًا يبسًا علىٰ ماء متجمد؛ فلحقهم فرعون وجنوده ظلمًا واعتداءً، ودخلوا البحر ومشوا علىٰ الطريق اليبس؛ فلما خرج موسىٰ وقومه من البحر؛ أمر الله الماء المتجمد أن يذوب، فانطبق البحر علىٰ فرعون وقومه فأغرقهم جميعًا، فلما أيقن فرعون بالهلاك، قال: ءامنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل، وأنا من المسلمين؛ فآمن حين لا ينفع الإيمان.

[٩١] فرد جل وعلا علىٰ فرعون فقال له: آلآن تؤمن وتقر بالعبودية؟ وقد عصيت من قبل وكفرت وكذَّبت وادعيت الألوهية! وكنت من المفسدين في الأرض ومن المستكبرين؛ فهذا وقت لا ينفع فيه الإيمان؛ لأن الموت قد حضر، وأُغلق باب التوبة.

[٩٢] ثم أمر جل وعلا البحر أن يقذف بجثة فرعون علىٰ الساحل بعد هلاكه ليكون عبرة للمعتبرين، وآية للناس أجمعين، فلا يسلكوا طريق العناد والكبر والتكذيب وادعاء الألوهية ومحاربة أولياء الله، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس عن هذه الآيات والعبر وغيرها غافلون لاهون، لا يتعظون ولا يعتبرون.

[٩٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل بني إسرائيل -بعد نجاتهم- منزلًا مباركًا طيبًا صالحًا، وأغدق عليهم سبحانه رزقًا حلالًا طيبًا، فاستمروا علىٰ الإيمان والوحدة، وما اختلفوا في أمر دينهم وفي الحق، ولا تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم ووحدتهم، ولكن بغىٰ بعضهم علىٰ بعض واتبعوا أهواءهم، فحصل لهم الاختلاف والفرقة، فالله سبحانه سيقضي بينهم يوم القيامة بالعدل في جميع ما كانوا فيه يختلفون.

[٩٤] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: فإذا كنت يانبي الله في ريب من هذه الأخبار التي أوحيناها إليك فاسأل أولئك الذين يقرأون التوراة والإنجيل؛ فسوف تجد ذلك ثابتًا في كتبهم، واعلم أنه قد جاءك الحق من ربك أنك رسول الله، ولكن اليهود والنصارىٰ ينكرون ذلك مع علمهم به، فلا تكوننَّ من الشاكِّين في صحة ذلك وحقيقته.
ومعلوم أنه ﷺ لم يشك وحاشاه ذلك، وقد علق الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان علىٰ هذه الآية وعلىٰ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [هود:١٠٩]، وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤].
فقال: (ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل شيئًا من ذلك، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلىٰ غيره). ثم قال: (ومن الآيات الدالة علىٰ أنه ﷺ يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأمته لا نفس خطابه هو قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، لأن معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾، أي: إذا بلغ والداك أو أحدهما الكبر ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾، ومعلوم أن والديه ﷺ قد ماتا قبل ذلك بزمن طويل؛ فتبين أن المراد التشريع لغيره ﷺ).

فالحاصل: أن الرسول ﷺ لم يشك ولم يسأل وحاشاه ذلك، والمقصود هنا المنافقون وغيرهم ممن تراودهم الشكوك، فعليهم أن يحزموا أمرهم ويتأكدوا ويسألوا الراسخين في العلم ممن يقرأون الكتاب حتىٰ لا يفجأهم الموت فيخسروا الدنيا والآخرة.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الآية حضٌّ لكل من في نفسه شك أن يسرع في البحث وإزالة الشك لئلا يدركه الموت وهو في شك فيخسر الدنيا والآخرة.

[٩٥] ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ فقال له: ولا تكونن يانبي الله من الذين كذَّبوا وجحدوا آيات الله وأدلته الظاهرة، فإن جزاء من فعل ذلك: الخسران المبين؛ وهو ﷺ مبرأٌ مما هو أقل من ذلك ولكن المراد تبليغه لأتباعه.

[٩٦] واعلم أن الذين حقت ووجبت عليهم كلمة الله بالطرد والإبعاد من رحمته -بسبب إعراضهم وردهم للحق أول مرة- هؤلاء جزاؤهم أنهم لا يؤمنون أبدًا.

[٩٧] ثم أخبر جل في علاه أن هذا الصنف من الناس مهما جاءته المواعظ والعبر فإنه لن يؤمن ولن يصدق حتىٰ يشاهد ويعاين العذاب الأليم؛ كما فعل فرعون، وهذا الإيمان لا ينفعهم، ولا يُقبل منهم، ولا يجدي عليهم شيئًا.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ
كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ
﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

[٩٨] ثم سلىٰ سبحانه نبيه ﷺ فقال له: واعلم يانبي الله لو أن أي قرية من قرىٰ المكذبين الجاحدين آمن أهلها عندما نزل بهم العذاب لم ينفعها إيمانها؛ لأن العذاب إذا نزل لا يرفع، ثم استثنىٰ سبحانه قوم يونس، فإنهم أوشكوا أن ينزل بهم العذاب فأسلموا وتابوا إلىٰ الله وأنابوا إليه، فرفع الله عنهم العذاب المخزي الذي كاد أن ينزل بهم ويستأصلهم، ثم تركهم جل وعلا إلىٰ حين انقضاء آجالهم في الحياة الدنيا.

[٩٩] ثم سلىٰ جل في علاه نبيه ﷺ فقال له: ولو شاء ربك يانبي الله لجعل أهل الأرض كلهم مؤمنين، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يجعلهم مختارين فيؤمن قوم ويكفر آخرون، وليس في إمكانك يانبي الله ولا في قدرتك ولا في وسعك أن تُكره الناس علىٰ الدخول في الإيمان؛ فما عليك إلا البلاغ.

[١٠٠] واعلموا أنه ما كان لأي نفس أن تؤمن بالله وتصدق به إلا بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه، ويجعل سبحانه الشر والضلال والعذاب والخزي علىٰ الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمون آياته ولا يتدبرونها، وقد أَذِنَ جل في علاه وجعل الثقلين مختارين؛ فمنهم من اختار الهدىٰ، ومنهم من اختار الكفر والضلال، عدلًا منه وفضلًا حتىٰ ينفي الظلم عن نفسه.

[١٠١] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يأمر قومه بأن ينظروا ما في السماوات والأرض، وما حل بالأمم السابقة، ولكن الآيات والعبر المنزلة والرسل المبعوثة بالحجج والبراهين والمعجزات لا ينتفع بها من كفر بالله وجحد آياته، وأعرض عن دينه، وإنما تنفع المطيع لربه، المنقاد لأوامره ونواهيه.

[١٠٢] ثم قال عز وجل: فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا يومًا يرون فيه عقاب الله وعذابه كما وقع بمن كفر من أسلافهم؟ فيعلمون أن مصير الضالين الهلاك، فقل لهم يانبي الله: انتظروا عذاب الله وعقابه فإني منتظر معكم عقاب الله بكم، وأما أنا فمنتظر نصر الله وتأييده لي عليكم.

[١٠٣] يخبر الله جل وعلا أن الرسل وأتباعهم هم أهل النجاة، فينجيهم الله من شدائد ومصائب الدنيا والآخرة، وهذا حق أوجبه الله علىٰ نفسه، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا.

[١٠٤] يأمر جل وعلا سيد المرسلين أن يقول للمعارضين: إن كنتم تشكّون في صحة ما جئتكم به من الحق وهو الإسلام الذي دعوتكم إليه المؤيد بالآيات الواضحات؛ فإنني أخالفكم وأنكر ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، وأتوجه وأخلص عبادتي لله ربي وربكم الذي هو يحييكم ويميتكم، وإنني أقدس أمره وأمتثله، وأمرت أن أكون من المصدقين به العاملين بشرعه.

[١٠٥] بعد أن نهىٰ جل وعلا عن الشكوك في أَمْرِهِ ﷺ أَمَرَهُ أن يستقيم علىٰ دين الإسلام غير مائل إلىٰ دين غيره كاليهودية والنصرانية، كما أمره أن لا يشرك في عبادته أحدًا غيره.
هذا وإن كان الخطاب موجَّهًا للنبي ﷺ إلا أنه موجَّه لعموم الأمة، والمعنىٰ: أن يأمر ﷺ المؤمنين أن يستقيموا علىٰ دين الإسلام ويخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له.

[١٠٦] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن لا يَدْعُ من دون الله شيئًا من الأوثان والأصنام؛ لأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، وبين أن العبادة الحقة إنما يستحقها الله الذي بيده الضر والنفع؛ فَمَنْ عدل عن عبادته وأشرك معه غيره فقد ظلم نفسه بالشرك والمعصية وخسر الدنيا والآخرة. وهذا الخطاب وإن كان موجَّهًا للنبي ﷺ إلا أن المقصود أن يبلغه أمته.